موقف أهل المغرب من الدولة الفاطمية بعد انتقالها إلى مصر 362- هـ440/971- 1048م

د. رضوان أحمد الليث
أستاذ التاريخ الإسلامي مساعد
كلية الآداب ـ قسم التاريخ
جامعة صنعاء

قيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب والمحافظة عليها ، يمثل نجاحاً كبيراً للقائمين على الدعوة الإسماعيلية والدعاة ، وبعد انتقالها إلى مصر أصبحت بلاد المغرب دار إمارة بعد أن كانت دار خلافة ، لذلك سنحاول في هذا البحث ـ إن شاء الله ـ أن نتعرف على موقف أهل المغرب من الدولة الفاطمية وعقيدتها الإسماعيلية بعد الانتقال إلى مصر ، هل استمروا في الولاء والطاعة للفاطميين ؟ أم حدث تحول في الولاء بعد الانتقال ؟ وهل كان التحول من قبل الحكام ؟ أم من الأهالي ؟ وما موقف الفاطميين من ذلك ؟ .

لذلك سيتناول البحث سياسة الدولة الفاطمية تجاه أهل المغرب عند الانتقال إلى مصر وموقف أهل المغرب من الوالي الفاطمي يوسف بلكين ، ثم المنصور بن يوسف و بداية الانفصال عن الدولة الفاطمية ، ثم كيف كانت بلاد المغرب في عهد باديس بن المنصور ، وأخيراً انفصال المغرب في عهد المعز بن باديس الذي سار في مرحلتين : المرحلة الأولى : قتل الدعاة الإسماعيليين وأتباعهم سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م وموقف الدولة الفاطمية من ذلك . المرحلة الثانية : قطع الخطبة ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م ، ثم السكة للفاطميين وموقف الدولة الفاطمية منها ، وسنختم البحث بأهم النتائج التي توصل إليها البحث .

سياسة الدولة الفاطمية تجاه أهل المغرب عند الانتقال إلى مصر :

قبل انتقال الدولة الفاطمية إلى مصر ، أخذ المعز لدين الله الفاطمي يبحث عن شخصية قوية ، تتمتع بصفات عديدة مثل القيادة الحكيمة ، والولاء والطاعة ، حتى يتمكن من بسط نفوذ الدولة على بلاد المغرب ويضمن بقاء نفوذها بالقضاء على أي ثورة ضد الوجود الفاطمي ، فوجد المعز تلك الصفات تتوفر في أحد قادته من أهل المغرب وهو بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي[1] . ويسمى

(1) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ج1 ص286 . الذهبي ، تاريخ الإسلام ج24 ص536-537 . الصفدي ، الوافي بالوفيات ج10 ص18 . ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ج3 ص80 .

أيضاً يوسف ، ويقال إن المعز هو الذي سماه يوسف بدلاً عن بلكين ، وكناه أبا الفتوح ولقبه سيف الدولة[1] .

ويوسف بلكين من أسرة معروفة بولائها للفاطميين ، فوالده زيري بن مناد كان له الفضل في إعادة الروح للدولة الفاطمية بعد أن كان أبو يزيد مخلد النكاري (تـ ربيع الأول ربيع الأول ه/ رجب ربيع الثاني رمضان م) قد تغلب على بلاد المغرب وحاصر المهدية عاصمة الدولة سنة ربيع الأول ربيع الأول ه/ ربيع الثاني ربيع الثاني رمضان م ، وكادت تضيع لولا استنجاد القائم بزيري الذي قدم لمساعدته وأنقذه من الهلاك ، ونتيجة لحسن بلائه وطاعته ، أصبح من الرجال المقربين وعين والياً على تاهرت[2] وأعمالها مكافأة له[3] . وبرزت شخصية يوسف إلى جانب والده في القدرة على التعامل مع الأحداث ، فكان يقوم بالإغارة ويحقق الانتصارات لحساب الدولة الفاطمية[4] ، ولما توفي والده سنة شوال ربيع الأول ه / شوال رجب رمضان م تولى حكم البلاد التي كان عليها والده ، وأقره المعز على ذلك ، وزاد في إقطاعه[5].

وحظي يوسف بلكين باحترام المعز ، فوقع الاختيار عليه ليكون والياً على بلاد المغرب ، وأمر الكتاب أن يكتبوا إلى العمال وولاة الأشغال بالسمع والطاعة لأبي الفتوح[6] ، ووضع له السياسة العامة التي يجب أن يسير عليها مع أهل بلاد المغرب حتى تستقيم الأوضاع له وهي :

أن لا يرفع السيف عن البربر .

لا يرفع الجباية عن أهل البادية .

لا يولي أحداً من أهل بيته لأنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منه[7] .

القضاء على الوجود الأموي في المغرب[8] .

وعلى الرغم من تولي يوسف بلكين بلاد المغرب ، إلا أن المعز لم يجعل له الحكم على بعض المناطق مثل جزيرة صقلية ، وطرابلس الغرب[9] ، واجد ابية[10] ، وسرت[11] ، حيث ولى عليها ولاة يخضعون مباشرة للخليفة في مصر ، وهذه السياسة ترمي إلى الحد من نفوذ يوسف بلكين ، وحتى

(1) ابن خلدون ، العبر ج6 ص155 .

(2) تاهرت ، اسم لمدينتين متقابلتين باقصى المغرب ، يقال لإحداهما تاهرت القديمة ، وللأخرى تاهرت المحدثة ، بينهما وبين المسيلة ست مراحل ، وهي بين تلمسان وقلعة حماد (ياقوت ، معجم البلدان ج2 ص7-8) .

(3) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ج2 ص343 . الذهبي ، تاريخ الإسلام ج24 ص201 . الصفدي ، الوافي بالوفيات ج15 ص38 .

(4) ابن الأثير ، الكامل ج7 ص333 . ابن عذاري ، البيان المغرب ج1 ص296 .

(5) ابن الأثير ، ج7 ص334 .

(6) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ج1 ص286 . ابن عذاري ، البيان ج1 ص228 .

(7) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج1 ص286 . ابن خلدون ، العبر ج6 ص155 . ابن أبي دينار ، المؤنس ص96 .

(8) ابن خلدون ، العبر ج6 ص155 .

(9) طرابلس الغرب ، مدينة على شاطئ البحر ، ومن طرابلس إلى نفوسه مسيرة ثلاثة أيام (ياقوت ، معجم البلدان ج4 ص28-29) .

(10) اجد ابية ، بلد بين برقه وطرابلس الغرب (ياقوت ، معجم البلدان ، ج1 ص125-126) .

(11) سرت ، مدينة على ساحل البحر بين برقة وطرابلس الغرب (ياقوت ، معجم البلدان ج3 ص232-233) .

يحس بأنه وال من بين ولاة على بلاد المغرب ، ولا يحدث نفسه في أي وقت من الأوقات بالانفصال عن الدولة الفاطمية عند توليه بلاد المغرب جميعها ، ولم يكتف المعز لدين الله بذلك بل عين ولاة على جباية أموال بلاد المغرب وعلى الخراج ، وذلك بهدف إضعاف يوسف بلكين ، وحتى لا يحدث صدام بين الولاة على اعتبار أن كل واحد منهم معين من الخليفة ، أمرهم المعز بطاعة يوسف بلكين والانقياد له[1] .

موقف أهل المغرب من الوالي الفاطمي يوسف بلكين :

فكر بعض أهل المغرب أن انتقال الدولة الفاطمية إلى مصر يعد فرصة ثمينة للخلاص من حكمهم ، فثارت بعض البلاد ضد الوالي الفاطمي يوسف بلكين في السنة التي انتقلت فيها الدولة الفاطمية إلى مصر سنة محرم ربيع الأول هـ / محرم رجب رمضان م ، فثار أهل باغاية[2] على عامل يوسف بلكين وقاتلوه وألحقوا الهزيمة به[3] ، فلما علم يوسف بلكين قرر معاقبتهم على عصيانهم وإعادتهم إلى طاعته ، وتعد هذه المشكلة بمثابة اختبار له أمام الدولة الفاطمية ، والقوى المحيطة به لإثبات قدرته وكفاءته في القضاء على أي ثورة تحدث ، فأرسل جيشاً لقتال أهل باغاية ، غير أن هذا الجيش وجد مقاومة شديدة فلم يستطع أن ينال منهم ، فتمت مراسلة يوسف واخباره بما حدث ، فاعد العدة للخروج بنفسه ، وبينما هو في حالة التجهيز وصلت إليه الأخبار بأن أهل تاهرت قد عصوا واخرجوا عامله[4] .

وشكل أهل تاهرت خطورة على يوسف بلكين وخافهم ، فسار بجيشه الذي أعده نحو تاهرت بدلاً من باغاية ، ودخل في حرب شديدة مع أهلها ، انتصر عليهم في نهاية الأمر ولشدة مقاومتهم وحتى لايعودوا للعصيان مره ثانية ، خرب تاهرت ، حتى تكون عبرة للآخرين وخلال وجوده في تاهرت وصلت إليه الأخبار بأن زناته قد نزلوا على تلمسان[5] ، وأعلنوا العصيان ، فسار نحوهم وفرض عليهم حصاراً شديداً اضطروا بعدها إلى الاستسلام ، فعفا عنهم[6] ، ونقلهم إلى مدينة أشير[7] .

ويلاحظ في الثورات التي قامت ضد يوسف بلكين أنها ثورات عامة يقوم بها جميع سكان تلك البلاد ، ولم تذكر المصادر التاريخية أن شخصيات - أي شخصية- حركتها وكان له دور في اشعالها ، أو توضح أسباب تلك الثورات ، هل كان للولاة دور في ظلم الأهالي وتعسفهم ؟ أم عدم

---

(1) ابن الأثير ، الكامل ج7 ص331 .

(2) باغاية ، مدينة كبيرة في اقصى أفريقية بين مجانه وقسنطينة (ياقوت ، معجم البلدان ج1 ص386-387)

(3) ابن الأثير ، الكامل ج7 ص332 . ابن خلدون ، العبر ج6 ص156 .

(4) ابن الأثير ، الكامل ج7 ص332 . ابن خلدون ، العبر ج6 ص156 .

(5) تلمسان ، مدينتان متجاورتان مسورتان ، بينهما رمية حجر ، احداهما قديمة والأخرى حديثة ، والحديثة اختطها الملثمون ملوك المغرب (ياقوت ، معجم البلدان ، ج2 ص44) .

(6) ابن الأثير ، الكامل ، ج7 ص332 . ابن خلدون ، العبر ، ج6 ص156 .

(7) أشير ، مدينة في جبال البربر بالمغرب في طرق أفريقيا الغربي ، كان أول من عمرها زيري بن مناد الصنهاجي . (ياقوت ، معجم البلدان ، ج1 ص240) .

كفاءة الولاة في ضبط ولاياتهم ؟ هل كان للناحية الاقتصادية دور في ذلك ؟ وبما أن الثورات قام بها الأهالي ضد عمال يوسف بلكين والي الفاطميين ، فيعني ذلك رفضهم للحكم الفاطمي وضرورة التخلص منه كون عقيدتهم الإسماعيلية مخالفة لعقيدتهم السنية ، فلو كانت الحالة الاقتصادية سيئة أو معاملة الولاة للأهالي فيها حيف لما سكتت المصادر التاريخية عن ذكر ذلك .

وإذا كان أهل المغرب يرفضون التبعية للدولة الفاطمية ، فقد وجد من يدافع عن ذلك وهم المستفيدون وعلى رأس هؤلاء الوالي يوسف بلكين والعاملون معه ، فقد عمل يوسف بلكين على تأسيس دولة لأسرته عرفت بالدولة الزيرية وفي سبيل ذلك سخر كل الامكانات لتحقيق ذلك ، فقد بسط نفوذه وسيطرته باسم الدولة الفاطمية ، وقضى على من يقف في تحقيق هدفه ، وبما أن المال هو المحرك لكافة أعماله وإنجازاته ، فبدونه لا يستطيع عمل شيء لذلك تخلص من والي جباية أموال أفريقية زياد الله بن القديم الذي عينه المعز الفاطمي فقد استغل دخول ابن القديم في منافسة مع عبد الله بن محمد الكاتب الذي كان يعمل معه ثم تطورت المنافسة إلى حرب ، فمال يوسف بلكين إلى عبد الله لصحبة قديمة بينهما وللتخلص من ابن القديم ، فقبض عليه ووضعه في السجن وظل فيه حتى وفاة المعز الفاطمي رجب رمضان هـ/ رجب رمضان م ، وولى يوسف بلكين عبد الله بن محمد الكاتب جباية أموال أفريقية وأصبح تابعاً له ، فاجتمعت ليوسف بلكين عنصرا القوة : الحكم والمال[1] . والغريب في الأمر أن الدولة الفاطمية لم يكن لها موقف مما جرى فإلقاء القبض على والٍ عينه الخليفة ووضعه في السجن وتعيين والٍ آخر على جباية الأموال ، يعد خروجا عن الولاء والطاعة ، ولكن ربما الثقة من الدولة الفاطمية ليوسف بلكين جعلها تقر كل ما يقوم به من عمل . وربما عدم رغبة الفاطميين في تبديد جهودهم في بلاد المغرب لأن خطتهم المستقبلية هي للمشرق للوصول إلى الحجاز والشام والعراق .

ومما زاد من قوة يوسف أنه تمكن من القضاء على خلف بن حسين وهو من أصحاب ابن القديم حيث ثار ومعه الكثير من البربر وغيرهم سنة رجب رمضان هـ/ رجب رمضان م ضد يوسف بلكين فسار إليهم وقتل منهم الكثير وعلى رأسهم خلف بن حسين نفسه فأرسل رأسه إلى مصر ، وحتى يثير الرعب والخوف في قلوب أهل افريقية ، بعث إلى القيروان من رؤوسهم سبعة آلاف رأس ، فحصد ثمار ذلك بأن أعلنت باغاية طاعتها بعد خوف أهلها ، وصالحوا يوسف بلكين فأمر بإخراجهم من مدينتهم وخرب سورها[2] .

وهنا نلاحظ أن خلف بن حسين وأتباعه من البربر لم تكن ثورتهم مثل ثورة أهل باغاية أو أهل تاهرت ضد الدولة الفاطمية ، وإنما تمرد على النظام لمصالح شخصية . ومثل هذا التمرد ينتهي بالقضاء على زعيمه .

---

(1) ابن الأثير : الكامل ، ج7 ص332 – 333 .

(2) ابن الأثير : الكامل ، ج7 ص333 .

تغيرت الأوضاع في مصر سنة ربيع الأول ه/رجب رمضان م ، فقد تولى العزيز بالله الحكم بعد وفاة والده ، فاستغل يوسف بلكين المناسبة لإظهار الولاء والطاعة وكسب عطف الفاطميين ، فبعث بهدية إلى العزيز بالله وهنأه بتوليه الحكم[1] .

وعمل يوسف بلكين على تدعيم دولته بعد أن سيطر على الناحية المالية في بلاد المغرب فأمر سنة ربيع الأول ه/رجب رمضان م بإنشاء أسطول بحري في المهدية ، وجمع كل الرجال من أهل بلاد المغرب الذين لديهم خبرة في البحر ولم يكتف بذلك بل وفر السلاح الكافي للأسطول [2] ، ويعد هذا العمل تجاوزاً خطيراً لحد التبعية ، لأن الوالي عليه تنفيذ سياسة الدولة في الولاية التي يحكمها ، وأي استحداثات يجب عليه أن يأخذ موافقة الدولة التي يخدمها ومع هذا لم يحرك هذا الإجراء شيئاً عند الدولة الفاطمية بل ساعدت بإجراءات أخرى على استفحال قوة يوسف فقد أضاف له العزيز بالله سنة رجب ربيع الأول ه/رجب رمضان م البلاد التي كان والده قد عين عليها غيره[3] وبهذا يكون يوسف بلكين قد انفرد بحكم بلاد المغرب جميعها فولى من يثق من رجاله على الوحدات الإدارية المختلفة وأصبح يتصرف كيفما يريد وبصورة مستقلة دون تدخل من الدولة الفاطمية التي اقتنعت بالولاء والطاعة ، وإقامة الخطبة والسكة باسمها ، وهذا في الحقيقة يمثل انحساراً لنفوذها ، وقوة ونماء ليوسف الذي " عظم أمره حينئذ وأمن ناحية العزيز واستبد بالملك ، وكان يظهر الطاعة مجاملة ومراقبة لا طائل وراءها "[4] .

وأخذ يوسف بلكين يعمل على بسط سيطرته على بلاد المغرب ، وكانت قبيلة زناته من أشد القبائل عداءً ليوسف بلكين ، ولم يستطع القضاء عليها على الرغم من الحروب العديدة التي قامت بينهما ، لأن زناته تعتمد في حربها على الإغارة والسلب والنهب وإثارة الفوضى ، ومهما وجه إليها من جيوش فلم يتمكن منها لأن رجالها كانوا يحتمون في الجبال والبراري[5] .

ففي سنة رجب ربيع الأول ه/رجب رمضان م ، اشتد ملك زناته وعظم شأنهم في بلاد أفريقية ، وذلك حينما قام خزرون بن فلفول بن خزر الزناتي بجمع الكثير من رجال زناته وغيرهم وهاجم سجلماسه واستولى عليها ، وأخذ أموالها ، وقتل صاحبها[6] ، وبعث برأسه إلى صاحب الأندلس الخليفة هشام

(1) ابن عذاري ، البيان ، ج1 ص299 . ابن أبي دينار ، المؤنس ، ص97 .

(2) ابن عذاري ، البيان ، ج1 ص229 .

(3) ابن الأثير ، الكامل ، ج7 ص361 . ابن عذاري ، البيان ، ج1 ص230 . ابن خلدون ، العبر ، ج6 ص156 .

(4) ابن الاثير ، الكامل ، ج7 ص361 .

(5) ابن الأثير ، الكامل، ج7 ص333 .

(6) ابن الأثير ، الكامل ، ج7 ص361 . ابن عذاري ، البيان ، ج1 ص230 – 231 . ابن خلدون ، العبر ، ج6 ص156 .

المؤيد بالله [1] لتأكيد ولائه للخليفة في الأندلس الذي عمل مراراً على أن يكون له موطئ قدم في بلاد المغرب .

فالوجود الأموي في بلاد المغرب يشكل خطراً كبيراً ليس للدولة الفاطمية وحدها وإنما ليوسف بلكين نفسه الذي كان يسعى لبناء مجد له على حساب الفاطميين فقد اتجه بجيشه سنة شعبان جمادى الآخرة ربيع الأول هـ / شعبان رجب رمضان م لإعادة البلاد التي سيطرت عليها قبيلة زناته وأقامت الدعوة فيها للأمويين في الأندلس ، فاستولى على فاس وسجلماسه وبلاد الهبط كلها وطرد منها عمال بني أمية ، فهربت زناته إلى سبته وتحصنت بها [2] ، وأخذت تستغيث بالمنصور بن أبي عامر [3] فخرج لنجدتهم ومعه أمراء زناته الذين فروا إلى قرطبة من الفاطميين [4] ، ولما رأى يوسف بلكين حصانة سبتة ومنعتها ، والمدد الذي تتابع من الأندلس بكثرة ، رجع إلى البصرة [5] وكانت تابعة لحكام بني أمية في الأندلس ، فدخلها واستولى على ما فيها من أموال ثم أمر بهدمها [6] ، وسار نحو برغواطة لانحراف أهلها عن الدعوة الفاطمية ، واتباعهم ملكهم صالح بن عيسى بن أبي الأنصار الذي أفرطوا في حبه وطاعته حتى جعلوه نبياً ، وشرع لهم شريعة فاتبعوه ، وبعد قتال شديد بينهما انتصر يوسف بلكين عليهم وقتل صالح بن عيسى [7] .

ولم تيأس قبيلة زناته بل أعادت الكرة فسيطرت على البلاد التي استعادها يوسف بلكين ، حيث استولى خزرون الزناتي على سجلماسه وطرد نائب يوسف بلكين عنها ، ونهب ما فيها من الأموال والعتاد ، وتغلب على فاس زيري بن عطية الزناتي [8] ، وأقام خزرون وزيري الدعوة للدولة الأموية في الأندلس[9]، التي كانت تقدم الدعم بغرض بسط نفوذها على بلاد المغرب ، فسار يوسف بلكين لقتالهما لكنه توفي في الطريق سنة ربيع الأول ربيع الأول هـ / ربيع الأول شعبان رمضان م .

المنصور وبداية الانفصال :

(1) هشام بن الحكم بن عبد الرحمن ، المؤيد بالله ، تولى الخلافة بالأندلس سنة 366هـ / 976م وكان ضعيف الرأي ، محجوراً عليه ، وقام بتدبير الخلافة المنصور محمد بن أبي عامر واستبد بالأمر ، خلع من الخلافة سنة 399هـ / 1008م ، وتولى محمد بن هشام بن الناصر لدين الله ، ثم عاد المؤيد بالله إلى الخلافة سنة 400هـ / 1009م واستمر حتى قتل سنة 403هـ / 1012م (الذهبي ؛ سير أعلام النبلاء ، ج8 ص271 . الزركلي ؛ الأعلام ، ج9 ص82) .

(2) ابن عذاري ؛ البيان ، ج1 ص231 .

(3) المنصور محمد بن أبي عامر ؛ كان في بداية حياته يكتب في دكانه للخدم والمرافقين للخليفة ، ثم صار كاتباً لصبح أم المؤيد وتدرج حتى صار حاجباً للخليفة هشام المؤيد ، وقام بتدبير الخلافة ، واستبد بالأمر ، توفي سنة 393هـ / 1002م . (المقري ؛ نفح الطيب ، ج1 ص482 – 409) .

(4) ابن خلدون ؛ العبر ، ج6 ص156 .

(5) البصرة ؛ بلد في المغرب في أقصاه قرب السوس . (ياقوت ؛ معجم البلدان ، ج1 ص521) .

(6) ابن الأثير ؛ الكامل ، ج7 ص361 . ابن عذاري ؛ البيان ، ج1 ص231 . ابن خلدون ؛ العبر ، ج6 ص156 .

(7) ابن الأثير ؛ الكامل ، ج7 ص362 . ابن عذاري ؛ البيان ، ج1 ص237 .

(8) زيري بن عطية بن عبد الله بن فزر المغراوي من بني فزر ؛ ملك على زناته سنة 368هـ / 978م فقام في المغرب بدعوة هشام المؤيد بالله وحاجبه المنصور بن أبي عامر ، توفي سنة 391هـ / 1000م (الناصري ؛ كتاب الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج1 ص265 .

(9) ابن الأثير ؛ الكامل ، ج7 ص414 . ابن أبي دينار ؛ المؤنس ، ص97 .

تولى المنصور بن يوسف الحكم بعد وفاة والده ، وتعد فترة حكمه البداية الأولى نحو الاستقلال عن الدولة الفاطمية في مصر على الرغم من أن الخليفة الفاطمي العزيز بالله قد أرسل إليه تقليدا بحكم بلاد أفريقية [1]، ولم يعترض على توليته أو فكر في عزله وتعيين غيره ، ولكن المنصور أراد أن يجني ثمار ما زرع والده ، فقد ورث دولة قوية ، وأحس بأن الفضل في بنائها يعود لوالده ، وأنه لم يصل إلى الحكم عن طريق الفاطميين ، ولذلك أخذ يفتخر بأبيه وأجداده مؤسسي الدولة أمام شيوخ أهل القيروان ، وكل من ورد عليه للعزاء بأبيه والتهنئة بتوليه الحكم فقال لهم : " إن أبي وجدي أخذا الناس بالسيف قهراً ، وأنا لا آخذهم إلا بالإحسان ، وما أنا في الملك ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب لأنني ورثته عن أبائي وأجدادي ورثوه عن آبائهم وأجدادهم حمير " [2] .

حدد المنصور سياسته تجاه أهل المغرب ، والدولة الفاطمية ، فبالنسبة لأهل المغرب قال أنه سيأخذهم بالإحسان وليس بالسيف ، وذلك حتى يطمئنوا إليه ويتعاملوا معه بالود والاحترام ، وربما رأى أن الشدة التي سار عليها الفاطميون ووالده من قبل لم تولد إلا العنف والرفض لحكمهم ، وربما أراد أن يتقرب من أهل المغرب حتى يكونوا رديفاً له في رد أي اعتداء على دولته في المستقبل ، أما بالنسبة للفاطميين في مصر فأراد أن يشعرهم بعدم التدخل في شئونه الداخلية ، وإظهار الميل نحو الاستقلال مع الاحتفاظ بعلاقته معهم مثلهم مثل بقية القوى المحيطة به على أن تستمر الخطبة والسكة باسم الفاطميين ، والتدرج في الاستقلال أفضل لأنه يؤدي في النهاية إلى الاستقلال النهائي دون حدوث مشاكل وصدام وهذا بعكس إعلان الاستقلال الفجائي ، فقد تجند الدولة الفاطمية كل إمكاناتها في سبيل القضاء عليه ، وحتى يسير في تحقيق أهدافه بعث بهدية إلى العزيز بالله تقدر قيمتها بألف ألف دينار[3] .

وأخذ المنصور يرتب أوضاع دولته ، فولى من يثق فيهم لمساعدته في إدارة البلاد فعين أخاه أبا البهار على تاهرت ، وعين أخاه الآخر يطوفت على أشير ، وعين على جباية أموال أفريقية عبد الله بن الكاتب [4] .

وكذلك أعد المنصور جيشاً كبيراً تحت قيادة أخيه يطوفت ، وأرسله سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة هـ / ثمان وخمسين وثلاثمائة م لاستعادة سجلماسة وفاس ومناطق أخرى من أيدي الزناتيين ، لكن هذا الجيش لم يحقق أهدافه ، فقد تصدى له صاحب فاس زيري بن عطية المغراوي ، وألحق بيطوفت هزيمة منكرة ، فقتل وأسر الكثير منهم ، بينما عاد يطوفت إلى أشير [5] .

---

(1) ابن خلدون ، العبر ، ج6 ص157 .

(2) ابن عذاري ، البيان ، ج1 ص240 . وانظر ابن الأثير ، الكامل ، ج7 ص415 . ابن أبي دينار ، المؤنس ، ص98 .

(3) ابن الأثير ، الكامل ، ج7 ص415 . ابن عذاري ، البيان ، ج1 ص240 .

(4) ابن الأثير ، الكامل ، ج7 ص415 .

(5) ابن الأثير ، الكامل ، ج7 ص424 – 425 . ابن عذاري ، البيان ، ج1 ص 241 . ابن خلدون ، العبر ، ج6 ص157 .

لقد عملت هزيمة الجيش الذي أرسله المنصور لقتال زناته عملها فرفعت معنويات زيري بن عطية الذي ثبت أقدامه في المغرب الأقصى بدعم من الدولة الأموية في الأندلس ، حتى أن المنصور لم يوجه إلى تلك البلاد أي حملة لاستعادتها . فأصبحت أول منطقة تنفصل عن الدولة الفاطمية وتقيم الخطبة لبني أمية بالأندلس .

وفي هذا الوقت تغيرت العلاقة بين المنصور والدولة الفاطمية التي خافت ضياع بلاد المغرب من نفوذها بعد تغير المنصور ، فحاولت إضعاف قوته ثم أزاحته عن حكم بلاد المغرب إن استطاعت ، ولتنفيذ هذه السياسة أرسل العزيز بالله داعياً إلى كتامة يقال له أبو الفهم حسن بن نصر ليدعوهم إلى طاعته فإن أجابوه جهز جيشاً وسار لحرب المنصور فحدث ما سعى إليه العزيز بالله ، واستجاب أهل كتامة لدعوة أبي الفهم ، وكون منهم جيشاً كبيراً ، وأصبح له شأن ليس في كتامة وإنما في بلاد المغرب [١] ، فصارت لديه دولة إلى جانب دولة المنصور ، وبلغ من نفوذه أنه صنع البنود [٢] وضرب السكة [٣] .

لقد أزعجت الأعمال التي قام بها أبو الفهم في بلاد المغرب المنصور وبدأ يعد العدة لحربه ، وقبل إقدامه على ذلك أرسل إلى العزيز يخبره بما حدث من أبي الفهم ، فأرسل العزيز رسولين إلى المنصور ينهاه عن التعرض لأبي الفهم وكتامة ، فغضب المنصور وأغلظ القول لهما وللعزيز أيضاً وسار بجيشه لحرب كتامة وأبي الفهم ، ومن شدة غضبه أخذ يخرب الأسوار والقصور والمنازل حتى يثير الرعب والفزع في كتامة ومن انضم إليها ، ولما وصل إلى مدينة سطيف [٤] مقر أبي الفهم ، حدث فيها قتال شديد ، انهزمت فيه كتامة وهرب أبو الفهم فتمت ملاحقته وقبض عليه ثم قتله وسلخه ، وقتل معه جماعة من الدعاة ووجوه كتامة [٥] .

فأدركت الدولة الفاطمية قوة المنصور وتمكنه في بلاد المغرب ، وعدم قدرتها على حربه بعد الفشل الذي لحق بها ، فرأت تحسين العلاقة مع المنصور ، فأرسل العزيز بالله إليه يطيب قلبه وأرسل هدية ولم يذكر له أبا الفهم[٦] .

وثارت كتامة من جديد ضد المنصور ، وخلعت طاعته وأعلنت انفصالها عنه ، بقيادة رجل يقال له أبو الفرج ادعى أن أباه ولد القائم بأمر الله الفاطمي ، وتمكن من جمع كتامة حوله سنة رمضان رجب ربيع أول هـ/ رمضان شعبان رمضان م ، ودخل في حروب كثيرة مع نائب المنصور في مدينة ميله[٧] وسطيف

(1) ابن الأثير ؛ الكامل ، ج7 ص431 .

(2) البند ؛ العلم الكبير ، وجمعه بُنُود . (ابن منظور ؛ لسان العرب ، ج1 ص501) .

(3) ابن عذاري ؛ البيان ، ج1 ص241 .

(4) سطيف ؛ مدينة في جبال كتامة بين تاهرت والقيروان من أرض البربر ببلاد المغرب ، ومنها خرج أبو عبد الله الشيعي . (ياقوت ؛ معجم البلدان ، ج3 ص 248) .

(5) ابن الأثير ؛ الكامل ، ج7 ص431 . ابن عذاري ؛ البيان ، ج1 ص244 .

(6) ابن الأثير ؛ الكامل ، ج7 ص431 . ابن عذاري ؛ البيان ، ج1 ص247 .

(7) ميله ؛ مدينة صغيرة بأقصى أفريقيا بينها وبين بجاية ثلاثة أيام . (ياقوت ؛ معجم البلدان ، ج5 ص282-283) .

فارتفع شأنه وصنع بنوداً وضرب الطبول وضرب السكة[1] ، وصار يشكل مصدر قلق وتهديد لدولة المنصور ، ويبدو من خلال الأعمال التي قام بها أبو الفرج في زمن قصير قد تمت بموافقة ودعم الدولة الفاطمية التي حاولت أن تعوض فشلها في المرة السابقة ، لأنه من غير المعقول أن يقوم أبو الفرج بإعداد جيش وضرب سكة وغير ذلك في العام الذي ثار فيه ، فلابد من إعداد وتخطيط مسبق لمثل هذا العمل حتى لا يتعرض للفشل .

ولم يسكئن المنصور لهذه التحركات بل سار في جيش للقضاء على أبي الفرج وكتامة وفعلاً ألحق بهما الهزيمة وقتل أبو الفرج ، وبما أن كتامة أصبحت مصدر تهديد للمنصور وحكمه فلم يرجع إلى أشير إلا بعد أن ترك فيها جيشاً كبيراً يرابط في تلك البلاد ويقضي على أي ثورة في مهدها ، وأرسل عماله على مناطقها[2] .

وفي موقع آخر من بلاد المغرب ، واستغلالاً للأحداث التي ثارت مع قبيلة كتامة تعرض المنصور لتمرد آخر ولكن هذه المرة من داخل أسرته ومن قبيلة صنهاجة فقد أعلن أبو البهار بن زيري عم المنصور سنة رمضان رجب ربيع أول هـ/ رمضان شعبان رمضان م العصيان في المناطق التي يحكمها نيابة عنه ، فسار المنصور نحو تاهرت للقضاء على عصيان عمه ، ولما علم أبو البهار فر إلى المغرب الأقصى ، فلحقه المنصور وفي الطريق لقي جيشه شدة ربما لنفاذ المؤن أو لتعرضه لهجمات كون البلاد التي يسير فيها تحكمها قبيلة زناته فأشير عليه بالرجوعفرجع[3] ، أما أبو البهار فقد طلب المساعدة من صاحب الأندلس ، مقابل إعلان الولاء والطاعة له في البلاد التي يستولي عليها ، وحتى يثبت حسن نيته وصدق كلامه رهن أحد أبنائه عنده فأمده بالمساعدة ، وانضم إليه زيري بن عطية الزناتي صاحب فاس ، والقائمون في بلاد المغرب على إقامة الدعوة لصاحب الأندلس ، وتعاونوا فيما بينهم ، ودخلوا في حروب مع نواب المنصور ، ونتيجة للاختلاف بينهم ، عاد أبو البهار إلى المنصور سنة صفر شعبان ربيع أول هـ/ صفر رمضان رمضان م ، فأكرمه وولاه مدينة تاهرت[4] .

أما موقف الدولة الفاطمية فقد حاولت التقرب من المنصور حيث أرسل العزيز بالله سنة صفر شعبان ربيع أول هـ/ صفر رمضان رمضان م سجلاً بولاية العهد لأبي مناد باديس بن المنصور ، فسر المنصور بذلك[5] ، وأرسل العزيز بالله سنة ربيع ثان شعبان ربيع أول هـ/ ربيع ثان رمضان رمضان م للمنصور هدية وفيل عظيم[6] ، وهذا التصرف من الدولة الفاطمية يثير الاستغراب كون الخلافة ترسل لأتباعها الهدايا لتتقرب منهم حتى لا ينفصلوا عنها ، وهذا عكس ما سارت عليه الخلافة العباسية التي كانت على الرغم من ضعفها تحظى باحترام حكام الأقاليم أو الدول المستقلة عنها التي تسعى إليها وتخطب ودها بإغداق الهدايا عليها .

---

(1) ابن الأثير ، الكامل ، ج7 ص440 .

(2) المصدر نفسه ، ج7 ص440 .

(3) ابن خلدون ، الكامل ، ج7 ص440 .

(4) المصدر نفسه ، ج6 ص157 .

(5) ابن عذاري ، البيان ، ج1 ص246 .

(6) المصدر نفسه ، ج1 ص247 .

بلاد المغرب في عهد باديس بن المنصور :

تولى باديس بن المنصور حكم بلاد المغرب ، بعد وفاة والده المنصور سنة ٣٨٦هـ / ٩٩٦م وفي بداية عهده تطلع أعمام والده من بني زيري إلى الحكم بدلاً عنه ، إلا أن رجال والده الأوفياء حالوا دون تحقيق ذلك[١] ، ولكن محاولة إزاحة باديس عن الحكم شجعت أحد أفراد قبيلة صنهاجة على الثورة ومحاولة الوصول إلى الحكم بالقوة ، فقد ثار خليفة بن المبارك على باديس لكن سرعان ما تم القضاء على ثورته في مهدها ، وقبض عليه ووضع في السجن[٢] حتى توفي .

وحتى تستقر الأوضاع ولا يتطلع أحد إلى الحكم ، اشرك باديس أفراد أسرته في حكم البلاد فعين عمه حماد بن يوسف على أشير والمغرب وأقطعه إياهما[٣] ، وعين عمه يطوفت على تاهرت[٤] وتقرب من الدولة الفاطمية ، وبعث بهدية إلى العزيز بالله[٥] ، لكن العزيز بالله توفي وتولى الحكم ابنه الحاكم بأمر الله الذي بعث بثلاثة سجلات إلى المنصورية سنة ٣٨٦هـ / ٩٩٦م،الأول بولاية باديس وتلقيبه نصير الدولة ، والثاني بوفاة العزيز وخلافة الحاكم بأمر الله ، والثالث بأخذ العهد على باديس وصنهاجة[٦] ووصلت في العام التالي ٣٨٧هـ / ٩٩٧م هدية من الحاكم إلى باديس تشمل الجواهر والأعلاق النفيسة[٧] .

وبعد ترتيب باديس أوضاعه الداخلية ، جهز جيشاً تحت قيادة محمد بن أبي العرب نائبه وأمره بالمسير لحرب زيري بن عطية المغراوي وذلك سنة ٣٨٧هـ / ٩٩٧م ، ولتعزيز جيشه انضم إليه يطوفت وحماد ، وعلى الرغم من ضخامة الجيش من حيث العدة والعتاد إلا أنه انهزم بعد حروب عديدة ، وغنم زيري أموالهم ، ويذكر ابن الأثير[٨] أن سبب الهزيمة كراهية الجيش لحماد لقلة عطائه لهم . ولئن صح أن هذا أحد عوامل الهزيمة - فمما يجب ملاحظته - أن حماداً لم يكن قائداً للجيش في هذه المعركة ، بل كان أحد المساعدين فقط[٩] ، فقائد الجيش هو ابن أبي العرب ، وبالتالي فإن هذا ضمن أسباب عديدة أدت إلى الهزيمة .

---

(1) ابن الأثير ، الكامل ، ج7 ص485 . ابن عذاري ، البيان ، ج1 ص247 .

(2) ابن الأثير ، الكامل ، ج7 ص485 .

(3) ابن الأثير ، الكامل ، ج4 ص485 . ابن أبي دينار ، المؤنس ، ص101 .

(4) ابن خلدون ، العبر ، ج6 ص157 .

(5) ابن عذاري ، البيان ، ج1 ص248 .

(6) ابن عذاري ، البيان ، ج1 ص248 – 249 . المقريزي ، اتعاظ الحنفاء ، ج2 ص16 . ابن أبي دينار ، المؤنس ، ص101 .

(7) ابن عذاري ، البيان ، ج1 ص249 .

(8) الكامل ، ج8 ص7-8 .

(9) عويس ، دولة بني حماد ، ص59 .

واستغل زيري بن عطية نصره على جيش باديس بالزحف نحو بلاده فاستولى على تاهرت وتلمسان وشلف وتنس والمسيلة ، وجملة من بلاد الزاب[1] أيضاً ، ووصل إلى أشير وضرب حولها حصاراً[2] .

وما أن علم باديس بهزيمة جيشه واستيلاء زيري على العديد من البلاد التابعة له حتى داخله الخوف فسار بجيشه نحو أشير لفك الحصار عنها وحينما سمع زيري بذلك هرب إلى تاهرت ، فدخلها باديس ثم عين عليها يطوفت ، وترك له أموالاً وعساكر لحمايتها ، ثم سار باديس نحو تاهرت فهرب زيري أيضاً إلى الغرب[3] .

توقف باديس عن ملاحقة زيري وعاد إلى أشير والسبب أن فلفل بن سعيد الزناتي قد بسط نفوذه على طبنه وتغلب على ما حولها ، وقصد باغاية فحصرها ، وأرسل باديس جيشاً لحرب فلفل سنة رمضان شعبان ربيع أول هـ/ شعبان رمضان رمضان م ، واستعادة البلاد التي استولى عليها غير أن هذا الجيش انهزم ، وسار فلفل نحو القيروان للاستيلاء عليها ، فخرج باديس بنفسه لقتاله فاستعاد باغاية ، وواصل زحفه حتى وصل إلى مرماجنه[4] ، ولم يهرب فلفل بل أعد جيشه وانضم إليه كل من في نفسه حقد على باديس ، والتقى الجيشان بوادي اغلان ، ووقعت بينهما حرب لم يسمع بمثلها ، كان النصر فيها حليف باديس وقتل من جيش فلفل الآلاف ، وعاد باديس إلى القيروان[5] .

وفي الوقت الذي كان باديس في حرب مع فلفل ، ثار عليه أعمام والده وأبناؤهم وقبضوا على عمه يطوفت الوالي على أشير ونهبوا جميع أمواله لكنه تمكن من الهرب إلى باديس واستنجد به ، ولم يكتف ماكسّن وزاوي ومن معهم من الاستيلاء على أشير والبلاد التابعة لها ، بل انضموا إلى فلفل بن سعيد ضد باديس ، لكن هزيمة فلفل جعلتهم يخافون ويعودون إلى طاعة باديس شوال رمضان ربيع أول هـ/ رمضان رمضان رمضان م ، عدا ماكسّن بن زيري[6] .

وعلى الرغم من الحروب العديدة التي خاضها باديس سنة رمضان شعبان ربيع أول هـ/ شعبان رمضان رمضان م لكنها لم تمكنه من القضاء على أعدائه إلا بما يحفظ ماء وجهه أمام القوى المحيطة به ، وبما أن الخطبة لا تزال قائمة باسم الدولة الفاطمية في البلاد التي يحكمها باديس ، كان من المفترض أن الحاكم بأمر الله يتولى مساعدة باديس للقضاء على أعدائه الذين يعدون في الوقت نفسه أعداء للدولة الفاطمية كونهم يقيمون الخطبة في بلادهم للأمويين في الأندلس ، ولكن الذي حدث هو العكس فقد فتحت الدولة الفاطمية جبهة جديدة لباديس حيث أمر الحاكم بأمر الله يانس الصقلي والي برقة بالمسير نحو

---

(1) الزاب : كورة عظيمة ونهر جرار بأرض المغرب على البر الأعظم عليه بلاد واسعة وقرى متواطئة بين تلمسان وسجلماسه والنهر متسلط عليها (ياقوت : معجم البلدان ، ج3 ص139) .

(2) ابن الأثير : الكامل ، ج8 ص8 . ابن عذاري : البيان ، ج1 ص250 .

(3) ابن الأثير : الكامل ، ج8 ص8 . ابن أبي دينار : المؤنس ، ص101 .

(4) مرماجنه : قرية بافريقية لهوارة قبيلة من البربر (ياقوت : معجم البلدان ، ج5 ص129) .

(5) ابن الأثير : الكامل ، ج8 ص8 . ابن عذاري : البيان ، ج1 ص251 .

(6) ابن الأثير : الكامل ، ج8 ص8 . ابن عذاري : البيان ، ج1 ص251 .

طرابلس والاستيلاء عليها سنة شوّال رمضان ربيع أول هـ/رمضان رمضان رمضان م وهي تابعة لباديس والهدف من هذا العمل هو استغلال الوضع السيئ الذي يعاني منه باديس وإدخاله في حرب جديدة بغرض إنهاك دولته والقضاء عليه ، ولتنفيذ هذه السياسة ، سار يانس ومعه ألف وخمسمائة فارس ، وتمكن من دخول طرابلس والاستيلاء عليها ، فغضب باديس وأرسل جيشاً لاستعادتها إلى نفوذه ، وبعد حرب استمرت يومين خارج طرابلس ، انهزم يانس وقتل في المعركة ، فهرب بقية الجيش نحو طرابلس وتحصنوا فيها ، وطلبوا من الحاكم بأمر الله النجدة ، فسير جيشاً تحت قيادة يحيى بن علي بن حمدون الأندلسي ، واجتمع مع فلفل بن سعيد فتمت مقاومة باديس حتى انسحب منها واستقر فلفل فيها [1] ، وبذلك انتقلت طرابلس من حكم الصنهاجيين إلى حكم فلفل بن سعيد الزناتي الذي ظل يحكمها وأسرته من بعده[2] .

لقد كان إعلان باديس الحرب على جيش الدولة الفاطمية يعني أن سياسته في حكم بلاد المغرب تظهر رغبته التامة في الاستقلال عن الفاطميين ، ولو كان يعد نفسه والياً يحكم نيابة عن الفاطميين لأذعن لقرار الخلافة ولم يعلن الحرب على جيشها ، ولكن يمكن القول بأن الوجود الفاطمي في بلاد المغرب قد انتهى ولم يبق له إلا الاسم .

إن الأوضاع السياسية المضطربة في عهد باديس شجعت ماكسّن بن زيري على الاستيلاء على الكثير من البلاد التابعة لباديس ، فقصد سنة محرّم رمضان ربيع أول هـ/شوّال شوّال شوّال محرّم أشير وكان يحكمها ابن أخيه حماد بن يوسف الذي استعد لمواجهته وألحق الهزيمة بماكسّن الذي قتل مع أولاده في أرض المعركة [3] .

وقام فلفل بن سعيد الزناتي الذي يحكم طرابلس بالتوسع ومحاولة الاستيلاء على مدينة قابس سنة ربيع أول رمضان ربيع أول هـ/صفر شوّال شوّال محرّم ، ومعه يحيى بن علي الأندلسي ، فقد فرضا حولها حصاراً ، لكنهما تراجعا وعادا إلى طرابلس خوفاً من مواجهة جيش باديس ، ولما رأى يحيى بن علي قلة المال واختلال حاله وسوء مجاورة فلفل وأصحابه عاد إلى مصر [4] . وبقي فلفل يحكم طرابلس حتى وفاته سنة شوّال شوّال ربيع ثان هـ/رمضان شوّال شوّال محرّم ، فتولى أخوه ورو الحكم ، فاستغل باديس الفرصة وخرج إلى طرابلس لحرب زناته ، فهرب أهلها وورو ، وعندما لم يكن لورو القوة لمواجهة باديس ، راسله وطلب منه الأمان ولمن معه من زناته ، مقابل الدخول في طاعته ، ويجعلهم عمالاً كسائر عماله ، فأمنهم وأحسن إليهم وأعطاهم نفزاوه وقسطيله مقابل رحيلهم عن طرابلس ، فوافق على ذلك [5] .

---

(1) ابن الأثير ، الكامل ،ج8 ص9 . ابن عذاري ، البيان ،ج1 ص251 . المقريزي ، اتعاظ الحنفاء ، ج2 ص37 .

(2) المقريزي ، اتعاظ الحنفاء ، ج2 ص52 .

(3) ابن الأثير ، الكامل ،ج8 ص9 .

(4) ابن الأثير ، الكامل ،ج8 ص25 . ابن عذاري ، البيان ، ج1 ص256 . عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب الكبير، ج2 ص655 .

(5) ابن الأثير ، الكامل ، ج8 ص25 . ابن عذاري ، البيان ، ج1 ص258 .

وحينما استطاع باديس إعادة نفوذه على طرابلس ، لم يكن أمام الدولة الفاطمية سوى التقرب والتودد إليه بعد فشلها في إضعافه ، فأرسل الحاكم بأمر الله سنة ربيع أول شوال ربيع ثان ه/ صفر محرم شوال محرم م هدية جليلة لباديس وابنه منصور ، وسجل بإضافة برقة وأعمالها إليه [1] إلا أنه - كما يبدو - لجأ الحاكم إلى كسب الود لما فعله في مصر من تغيير لولي العهد المخالف للعقيدة الإسماعيلية حيث أرسل إلى باديس سجلاً جعل ولاية العهد لابن عمه أبي القاسم عبد الرحيم بن الياس ، فقرأه بجامع القيروان والمنصورية ، وأثبت اسمه مع اسم الحاكم في البنود والسكة [2] . إلا أن باديس لم يكن موافقاً على ما فعله الحاكم وحاول أن يحاور الحاضرين معه ويذكرهم بما تشترطه العقيدة الإسماعيلية التي تجعل الإمامة في الذرية ، فقال : " لولا أن الإمام لا يعترض على تدبير لكاتبته ألا يصرف هذا الأمر من ولده إلى ابن عمه "[3] .

وعلى الرغم مما أظهره باديس من رأيه في تولية عبد الرحيم بن إلياس ولاية العهد ، إلا أنه لم يكن يرغمه الصدام معه فجهز هدية جليلة إلى الحاكم وفيها مائة فرس ولها سروج محلاة شدة في ثمانية عشر حملاً وكان فيها ثمانية وعشرون حملاً من الخز والسمور والمتاع السوسي المذهب النفيس وعشرون وصيفه بارعة الجمال وعشرة من الصقالبة وغير ذلك ، ووجهت أم ملاك أخت باديس إلى أخت الحاكم هدية أيضاً[4] ، لكن هذه الهدية لم تصل لأن العرب من بني قرة استولوا عليها في برقة[5] . لكن يبدو أن اخبار الهدية قد وصلت إلى الحاكم .. وفي الوقت ذاته عمل باديس على بسط نفوذه في المغرب الأقصى فبعد وفاة زيري بن عطية المغراوي سنة محرم رمضان ربيع أول ه/ شوال شوال محرم م وعم والده ماكسّن بن زيري ، أرسل باديس جيشاً بقيادة عمه حماد لقتال زناته فحقق العديد من الانتصارات واستولى على بلاد عديدة[6] ، وضبط أحوالها ، وصار أقوى شخصية في الزاب والمغرب الأوسط كله إلى الحد الذي جعل باديس يتخوف من حماد وان عمله هذا يهدد مستقبل الدولة الزيرية[7] .

لقد أصبحت تحركات حماد في البلاد التي يحكمها توحي بالسير نحو الاستقلال وكانت أخباره تصل إلى ابن أخيه باديس وهو يغض الطرف عنه فربما تكون تلك الأخبار عبارة عن وشاية الغرض منها تمزيق البيت الزيري . ومع ذلك فقد وضع لعمه حماد اختباراً سنة جمادى أول شوال ربيع ثان ه/ ربيع ثان محرم شوال محرم م لمعرفة الحقيقة حيث طلب منه أن يسلم بعض ما بيده من الأعمال

(1) ابن عذاري ، البيان ، ج1 ص259 . المقريزي ، اتعاظ الحنفاء ، ج2 ص 99 .

(2) ابن عذاري ، البيان ، ج1 ص259 .

(3) المصدر نفسه ، ج1 ص259 .

(4) ابن عذاري ، البيان ، ج1 ص260 – 261 .

(5) ابن عذاري ، البيان ، ج1 ص261 . المقريزي ، اتعاظ الحنفاء ، ج2 ص110-111 .

(6) ابن خلدون ، العبر ، ج6 ص171 .

(7) عويس ، دولة بني حماد ، ص63 .

وهي تيجس وقصر الأفريقي[1] وقسنطينة[2] لولي عهده المعز ، لكن حماد رفض وأعلن العصيان ، فوسط باديس عمه إبراهيم أخا حماد ليعيده إلى الطاعة والولاء ويمنعه من العصيان وبدلاً من إصلاح ذات البين ، شجع إبراهيم أخاه حماداً على العصيان فوافقه على ذلك وأظهر العصيان وخلع طاعة الفاطميين ، وقتل الرافضة وأظهر السنة ورضى عن الشيخين - أبو بكر وعمر ﷺ - في الخطبة وأقام الدعوة للخلافة العباسية سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م ، وأعد ثلاثين ألف جندي لقتال باديس[3] .

ويعد حماد أول رجل من بني زيري يعلن خلع طاعة الفاطميين ، ويقيم الخطبة للعباسيين ويتتبع أتباع العقيدة الإسماعيلية بالقتل ، وهذا يدل على عدم اعتناق بني زيري للعقيدة الإسماعيلية ، وإن تظاهروا بعض الوقت بها فما هو إلا للاحتفاظ بسيطرتهم على بلاد المغرب والقضاء على معارضيهم ، فلو كان حماد معتنقاً للعقيدة الإسماعيلية لما خلع طاعة الفاطميين واكتفى بخلع طاعة ابن أخيه باديس ، وطلب من الدولة الفاطمية مساعدته في ذلك ، ولو كان أتباعه معتنقين للعقيدة الإسماعيلية لمنعوا حماداً عن أفعاله .

ولذلك سار حماد بجيشه نحو بلاد ابن أخيه باديس بغرض الاستيلاء عليها ، وحتى يكسب عقول وعطف أتباعه وأهل البلاد التي سيتجه إليها ، ولتحقيق الانتصارات جعل حروبه ذات صبغة دينية فأعلن قتال المشارقة[4] والرافضة ، واستخدم هذا الشعار في تحريض أهل تونس[5] ، وحقق العديد من الانتصارات حتى وصل أشير .

ولكن باديس لم يسكت عن الأعمال التي يقوم بها حماد ، واستخدم الأسلوب نفسه الذي انتهجه حماد في الدعاية فرفع شعاراً ضد حماد وأتباعه بأنهم عملوا على " مفارقة الجماعة والخروج عن الطاعة "[6] وكان لها تأثير على أتباع حماد ، فعندما التقى الجيشان سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م ، لحقت الهزيمة بجيش حماد ويبدو أن السبب في هذه الهزيمة يرجع إلى سياسة حماد المبنية على القتل والسلب والتدمير في البلاد التي يصلها حتى رفضت بعضها التسليم مخافة التدمير وانضمت إلى باديس ، ونتيجة لهذه السياسة فر الكثير من أتباعه إلى باديس الذي أكرمهم[7] ، وكان حماد وأخوه إبراهيم قد حاولا التفاوض مع باديس وأعلنا أنهما لم يخرجا عن الجماعة ولم يخلعا الطاعة ، فكذبهما باديس ، وسار لملاحقتهما بعد الهزيمة ، وقرر المقام في

(1) قصر الأفريقي : مدينة جامعة على مشرف من الأرض ذات مسارح ومزارع كثيرة (ياقوت : معجم البلدان ، ج4 ص404) .

(2) قسنطينة : مدينة وقلعة وهي من حدود أفريقية مما يلي المغرب (ياقوت : معجم البلدان ، ج4 ص397) .

(3) ابن الأثير : الكامل ، ج8 ص86 .

(4) أطلق أهل المغرب على الشيعة اسم المشارقة ، نسبة إلى الداعي أبي عبد الله الشيعي الذي يلقب بالمشرقي لأنه جاء من المشرق ، فسمى أنصاره المشارقة (ابن الأثير : الكامل ، ج8 ص114 . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص332) .

(5) ابن خلدون : العبر ، ج6 ص171 .

(6) ابن الأثير : الكامل ، ج8 ص86 - 87 .

(7) المصدر نفسه ، ج8 ص86 - 87 .

المنطقة التي فيها حماد ، " وبذل الأموال لرجاله فاشتد ذلك على حماد وانكر رجاله وضعفت نفسه وتفرق منه أصحابه "[1] . ولم ينقذه من الموقف سوى موت باديس .

انفصال بلاد المغرب عن الدولة الفاطمية في عهد المعز بن باديس :

تولى المعز بن باديس الحكم بعد وفاة أبيه سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م ، وفي عهده انفصلت بلاد المغرب عن حكم الفاطميين ، وأصبحت تدين بالولاء والطاعة للخلافة العباسية في بغداد ، ولم يتم الانفصال بصورة مفاجئة ، ولكن تم ذلك بتدرج وعلى مرحلتين :

المرحلة الأولى : قتل أتباع العقيدة الإسماعيلية 406هـ/1015م .

بعد تولي المعز بن باديس الحكم ، تعرض الدعاة وأتباع العقيدة الإسماعيلية إلى القتل والتشريد من قبل أهل بلاد المغرب سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م ، وشجعهم على ذلك سكوت أو تأييد المعز بن باديس الذي تحول إلى عقيدة أهل السنة ، وتذكر المصادر التاريخية سبب ذلك التحول ، فيذكر ابن الأثير[2] : " أن المعز بن باديس ركب ومشى في القيروان والناس يسلمون عليه ويدعون له ، فاجتاز بجماعة فسأل عنهم فقيل هؤلاء يسبون أبا بكر وعمر ، فقال : رضي الله عن أبي بكر وعمر ، فانصرفت العامة من فورها إلى درب المقلى من القيروان - وهو مكان تجتمع به الشيعة - فقتلوا منهم ، وكان ذلك شهوة العسكر وأتباعهم طمعاً في النهب ، وانبسطت أيدي العامة في الشيعة،وأغراهم عامل القيروان وحرضهم ، فقتل من الشيعة خلق كثير ، وأحرقوا بالنار ونهبت ديارهم في جميع أفريقية " .

بينما يذكر ابن عذاري[3] السبب حيث يصف ذلك بقوله : " فخرج المعز في بعض الأعياد إلى المصلى في زينته وحشوده وهو غلام فكبا به فرسه فقال عند ذلك : أبو بكر وعمر فسمعته الشيعة التي كانت في عسكره فبادروا إليه ليقتلوه ، فجاءه عبيده ورجاله ومن كان يكتم السنة من أهل القيروان ووضع السيف في الشيعة ، فقتل منهم ما ينيف على الثلاثة آلاف ، فسمي ذلك الموضع بركة الدم إلى الآن ، فقال أبو الصلت : وصاح بهم في ذلك الوقت صائح الموت فقتلوا في سائر بلاد أفريقية ... " .

وعلى الرغم مما ذكره كل من ابن الأثير وابن عذاري من أسباب لتحول المعز إلى عقيدة أهل السنة وملاحقته أتباع العقيدة الإسماعيلية بالقتل إلاّ أن الدارس لا يستطيع الاقتناع بذلك ، فمن غير المعقول أن يتحول إنسان من عقيدة إلى أخرى فجأة وبدون إعداد سابق ، وأيضاً انصراف العامة إلى قتل الشيعة في بلاد أفريقية بمجرد قول المعز رضي الله عن أبي بكر وعمر .

أما رواية ابن عذاري فلا يمكن اعتبارها سبباً لتحول المعز إلى عقيدة أهل السنة ، لأنه إذا كان إسماعيلياً في عقيدته فلا يمكن أن يذكر أبا بكر وعمر رضي الله عنهما لأنهما من أبغض الناس

(1) المصدر نفسه ، ج8 ص87 - 88 .

(2) الكامل ، ج8 ص114 .

(3) البيان ، ج1 ص274 .

لدى أتباع العقيدة الإسماعيلية ، وإن كان المعز سنياً فلا يذكر هما في مثل هذا الحدث ، لأن المسلم السني عندما يتعرض لحدث ما يذكر الله ﷻ مباشرة لقوله ﷻ : ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾[1] ، والرسول ﷺ يقول : " إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله "[2] .

ومحاولة الإسماعيلية قتله ، لا يجعله ذلك يخرج من عقيدته الإسماعيلية ويقتل كل معتنقي المذهب الإسماعيلي ، وإنما يحاسب مرتكبي الحادث فقط .

لذلك فإن من المحتمل أن الأسباب التي جعلت المعز بن باديس يتحول من العقيدة الإسماعيلية إلى عقيدة أهل السنة متعددة منها :

- أن الإسماعيلية لم تلق قبولاً من أهل بلاد المغرب ، وإن اعتنقه البعض ودافع عنه ، فيعود السبب إلى الرغبة في تحقيق مصالح شخصية لا يمكن تحقيقها إلاّ باعتناق هذه العقيدة ، طالما أن القائمين على الحكم يقربون إليهم كل معتنقي عقيدتهم ، وبما أن قبيلتي زناته وصنهاجة في تنافس على بسط النفوذ في بلاد المغرب[3] ، فقد مالت صنهاجة إلى الفاطميين لتحقيق أطماعها ، أما زناته فقد ظلت على عقيدة أهل السنة ، ويكرهون الفاطميين وعقيدتهم ، ومثلما عمل زعماء قبائل صنهاجة لتحقيق أهدافهم ، سار القادة والولاة بالطريقة نفسها مثل عامل القيروان الذي شجع العامة وحرضهم ضد الدعاة ومعتنقي العقيدة الإسماعيلية ، ولم يخرج العسكر أيضاً عن ذلك فقد كانوا ضمن العامة في التعرض لأتباع العقيدة الإسماعيلية ، ويفهم من ذلك أن العلاقة بين الولاة والقادة والجنود مع الدولة الفاطمية علاقة قائمة على المصلحة الشخصية .
- ومنها وجود كتب لدى أتباع العقيدة الإسماعيلية " كان فيها من الكفر والتعطيل للشريعة وإباحة المحارم شيء كثير "[4] ، وهذا مما أدى إلى نفور أهل المغرب من المذهب الإسماعيلي رغم استخدام الفاطميين لجميع الوسائل في سبيل تحويل الناس إلى العقيدة الإسماعيلية ، وكان الصراع شديداً بينهما " حتى قطع أهل القيروان صلاة الجمعة فراراً من دعوتهم ، وتبديعاً لإقامتها بأسمائهم ، فكان بعضهم إذا بلغ المسجد قال سراً : اللهم اشهد ، اللهم اشهد ، ثم ينصرف فيصلي ظهراً أربعاً ، إلى أن تناهى الحال لم يحضر الجمعة من أهل القيروان أحد ، فتعطلت الجمعة دهراً وأقام ذلك مدة ، إلى أن رأى المعز بن باديس قطع دعوتهم ، فكان بالقيروان لذلك سرور عظيم "[5] .
- ومنها أن أتباع العقيدة الإسماعيلية كانوا يشكلون نسبة قليلة بين سكان أهل المغرب ، ولعلهم المستفيدون من بقاء تلك العقيدة ونشرها لا لشيء وإنما ليستمر بقاؤهم ويحافظوا

(1) سورة غافر ، آية 60 .

(2) أخرجه الترمذي ، باب (حديث حنظلة ..) رقم 2516 ص572 .

(3) ابن خلدون ، العبر ، ج6ص153 .

(4) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج1 ص268-269 .

(5) المصدر نفسه ، ج1ص277 .

على مصالحهم ، فيذكر ابن عذاري [1]: " وانبسطت أيدي العامة على الشيعة وانتهبت دورهم وأموالهم ، وتفاقم الأمر وانتهى إلى البلدان فقتل منهم خلق كثير " . ويعني هذا أن أتباع العقيدة الإسماعيلية تميزوا عن أهل المغرب بالثراء وامتلاك الدور ، ويذكر ابن خلدون[2] أن المعز " لعن الرافضة ثم صار إلى قتل من وجد منهم " ولو كانوا كثيري العدد لتمكنوا من البقاء وقاتلوا أهل السنة والجماعة ، ولما تجاسر عليهم أهل السنة في بلاد المغرب .

- ومنها أيضاً ميل أسرة بني زيري إلى عقيدة أهل السنة وإن لم يظهر ذلك إلاّ في عهد المعز بن باديس ، ولكن الأعمال التي قاموا بها ضد الدولة الفاطمية تجعلنا نشك في نقاء عقيدتهم الإسماعيلية ، وأن الخطبة والسكة لم تستمر إلاّ للحفاظ على علاقتهم السياسية بالفاطميين ، ولكنهم على أرض الواقع كانوا بعيدين كل البعد عنهم ، ولا يمكن أن يخالفوا الدولة الفاطمية ويحاربوها إلاّ ولديهم اطمئنان إلى وحدة الجبهة الداخلية ، وربما تقربوا إلى أهل السنة في بلاد المغرب ، وبرز هذا التقارب في عهد باديس الذي تقرب من أهل السنة كثيراً حتى أنه اعتمد عليهم في تدريس ابنه المعز والإشراف على تربيته ومنهم الشيخ أبو الحسين بن أبي الرجال الذي كان له الفضل في تعليم المعز مذهب مالك وتحريضه ضد الإسماعيليين " فحرض ابن أبي الرجال المعز بن باديس وأدبه ودلّه على مذهب مالك وعلى السنة والجماعة ، والشيعة لا يعلمون ذلك ولا أهل القيروان "[3]. وبالتأكيد كان لهذا الشيخ الجليل دور في تعليم المعز مذهب مالك ، وربما تحت بصر والده وبقية أفراد أسرته والمقربين من الحكم ، فمن غير المعقول أن يقوم ابن أبي الرجال بتعليم أولاد باديس بما لا يقره أو لا يوافق عليه ، ومعروف تاريخياً أن مؤدبي ومعلمي الصبيان لا يقومون بالتدريس في قصور الحكام والأمراء والوزراء إلاّ بعد معرفة علمهم وأخلاقهم وعقيدتهم الدينية والمذهبية ، فاختيار ابن أبي الرجال يؤكد على ذلك الميل وإن كان الأمر بطريقة سرية حتى لا تغضب الدولة الفاطمية ، وإلاّ ما الذي دعا حماد بن يوسف بلكين إلى الانقضاض على الشيعة في البلاد التي يحكمها وقتلهم وتغيير العقيدة التي يعتنقها .

لهذه الأسباب كان تحول المعز إلى عقيدة أهل السنة حيث تربى عليها منذ الصغر .

إن الأعمال التي قام بها المعز بن باديس ضد أتباع العقيدة الإسماعيلية تجعل الدولة الفاطمية في مصر تثور ، وتبذل كل جهدها ضد المعز لإعادة نفوذها العقائدي وحماية أتباعها ونفوذها في بلاد المغرب ، لكنها سلكت الأسلوب السياسي في معالجة تلك المشكلة ، لعلها تعطي ثمارها خاصة وأن الدولة الزيرية أصبحت قوية ولا تستطيع القضاء عليها ، إضافة إلى انشغال الحاكم بأمر الله

(1) البيان ، ج1ص268 .

(2) العبر ، ج6ص159 .

(3) ابن عذاري ، البيان ، ج1ص273 .

بأموره الداخلية المتعلقة بموضوع إعلان ألوهيته ، فجعله هذا يتقرب من المعز سياسياً بدلاً من الصدام العسكري الذي قد لا يأتي بنتيجة بعد فشل المؤامرات السابقة للقضاء على بني زيري ، فبعث إليه الحاكم سنة رجب شوال ربيع الثاني هـ/ جمادى الأول محرم شوال محرم م بخلع ولقبه شرف الدولة ، ولم يذكر ما كان منه ضد الشيعة من القتل والإحراق[1] .

لقد أخذت الدولة الفاطمية تغدق بالهدايا على المعز وكأنها عبارة عن ولاية تابعة له ، تحاول أن تكسب رضاه ، فقد ورد على المعز سنة محرم محرم ربيع الثاني هـ/ شوال صفر شوال محرم م أبو القاسم بن اليزيد رسولاً من الحاكم ومعه سيف مكلل بنفيس الجواهر ، وخلعه من لباسه لم ير الناس مثلها ، وفي العام نفسه أيضاً ورد محمد بن عبد العزيز بن أبي كدية بسجل من الحاكم وخمسة عشر علماً منسوجة بالذهب[2] .

وفي سنة ربيع الثاني محرم ربيع الثاني هـ/ ربيع الأول صفر شوال محرم م ، وصل محمد بن عبد العزيز بن أبي كدية من قبل الظاهر بالله بتشريف عظيم للمعز ، وزاد لقباً إلى لقبه ، فسماه شرف الدولة وعضدها ، وبعث إليه مع ذلك ثلاثة أفراس من خيل ركوبه بسروج جليلة ، وخلعة نفيسة من نفيس ثيابه ، ومنجوقين منسوجين بالذهب على قصب ، ما دخل افريقية مثلها قط ، وعشرين بنداً مذهبة ومفضضة[3] .

وبعد كل هذه الهدايا أرسل المعز هدية قيمة للدولة الفاطمية[4] سنة شوال صفر ربيع الثاني هـ/ رمضان صفر شوال محرم م ليس للتعبير عن مدى طاعته وولائه للدولة الفاطمية وإنما مجاملة سياسية ، لأن المعز كان عند استلامه لتلك الهدايا من الفاطميين ينظر إليها بعين الشك من الناحية الدينية ، هل هي جائزة شرعاً أم لا ؟ فقد طلب من أحد العلماء فتوى " في هذه الطرز التي فيها أسماء الفاطميين ، وغيرها مما يلبس أو يصلى فيها "[5] مما يدل على عدم قناعته بالمذهب الإسماعيلي كلية .

المرحلة الثانية : قطع الخطبة والسكة للفاطميين :

العلاقة في المرحلة الأولى بين المعز والفاطميين مرت بفتور شديد حيث كان للفاطميين رغبة شديدة في التقرب من المعز ، لكنه قابل ذلك بفتور ، ليس لوجود عداء بينهما فحسب ، بل لوجود حاجز كبير بينهما لا يمكن تجاوزه ، والحاجز يتمثل بالعقيدة الدينية التي يؤمن بها كل طرف ، فأصبح المعز ومعه أهل المغرب من علماء وعامة يكرهون الفاطميين بسبب عقيدتهم الإسماعيلية ،

(1) ابن عذاري ، البيان ، ج1ص269 . وانظر ، ابن الأثير ، الكامل ، ج8ص89 . ابن أبي دينار ، المؤنس ، ص104 .

(2) ابن عذاري ، البيان ، ج1ص269 ، المقريزي ، اتعاظ الحنفاء ، ج2ص111 .

(3) ابن عذاري ، البيان ، ج1ص271 ، المقريزي ، اتعاظ الحنفاء ، ج2ص132 .

(4) المقريزي ، اتعاظ الحنفاء ، ج2ص177 .

(5) حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص336 . نقلاً عن الدباغ ، معالم الإيمان ، ج3ص209 .

لذلك عملوا على قتل أتباعهم والتنكيل بهم في بلاد المغرب ، مما أضعف وجودهم وفرق كلمتهم وشتت شملهم[1] .

وزاد أهل السنة قوة إلى جانب قوتهم العقائدية ، فاستغلوا ذلك النصر وعدم قيام الفاطميين بأي عمل ضدهم ، فعملوا على إزالة ما بقي للفاطميين في بلاد المغرب من مظاهر تدل على التبعية مثل الخطبة والسكة والبنود ، وكانت لدى المعز رغبة في القضاء عليها منذ بداية توليه الحكم لولا خوفه على أهل السنة من القتل على يد الفاطميين في مصر عند ذهابهم إلى مكة لأداء فريضة الحج أو السفر إلى المشرق الإسلامي بغرض التجارة ، فقال : " ما أبقيت السكة والبنود إلاّ مداراة لأجل حجاج بيت الله الحرام والمسافرين "[2] .

وهنا نرى أن الذي يتحكم ويوجه سياسة المعز تجاه الدولة الفاطمية ورعيته من أهل المغرب هي عقيدة أهل السنة التي يؤمن بها ، فهو ينظر إلى مصلحة المسلمين لا إلى مصلحته الشخصية .

وفي الوقت الذي أصبحت فيه العلاقة بين المعز والفاطميين ضعيفة وشبه منعدمة ، تطورت علاقته مع الخليفة العباسي القائم بأمر الله (صفر صفر ربيع ثان - رجب جمادى الأول ربيع ثان هـ/ محرم ربيع أول شوال محرم - جمادى الأول رجب شوال محرم) ، وصارت بينهما مراسلات ، واستمر هذا حتى أقيمت الخطبة بالقيروان للخليفة العباسي القائم بأمر الله ، وقطعت الخطبة للدولة الفاطمية .

وهناك اختلاف بين المصادر التاريخية حول السنة التي قطعت الخطبة فيها للفاطميين إلى أربعة أقوال :

إما سنة ربيع أول ربيع أول ربيع ثان هـ/ محرم ربيع ثان شوال محرم[3] ، وإما سنة جمادى الأول ربيع أول ربيع ثان هـ/ ربيع أول ربيع ثان شوال محرم[4] ، وإما سنة شوال ربيع ثان ربيع ثان هـ/ شعبان ربيع ثان شوال محرم[5] ، وإما سنة ربيع أول ربيع ثان ربيع ثان هـ/ محرم جمادى الأول شوال محرم[6] .

وأمام هذا الاختلاف نرجح أن قطع الخطبة كان سنة شوال ربيع ثان ربيع ثان هـ/ شعبان ربيع ثان شوال محرم ، لأن الرحالة ناصر خسرو الذي كان موجوداً في مصر سنة رمضان ربيع أول ربيع ثان هـ/ رجب ربيع ثان شوال محرم ، ولم يغادرها إلاّ سنة شوال ربيع ثان ربيع ثان هـ/ شعبان ربيع ثان شوال محرم ذكر أن بلاد المغرب كانت تابعة للفاطميين فقال :" وهي في هذه الأيام تابعة لسلطان مصر "[7] . إضافة إلى أن الوزير أبا القاسم علي بن أحمد الجرجرائي (ت جمادى الأول ربيع أول ربيع ثان هـ/ ربيع ثان ربيع ثان شوال محرم) حذر المعز بن باديس من التعرض للخلفاء الفاطميين كما ذكر ابن

(1) حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص336 .

(2) حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص336 ، نقلاً عن الدباغ ، معالم الإيمان ، ج3ص167 .

(3) ابن عذاري ، البيان ، ج1ص275 .

(4) ابن الأثير ، الكامل ، ج8ص265 . ابن كثير ، البداية ، ج12ص56 . المقريزي ، اتعاظ الحنفاء ، ج2ص190 .

(5) ابن عذاري ، البيان ، ج1ص277 . ابن خلدون ، العبر ، ج6ص159 . ابن أبي دينار ، المؤنس ، ص105 .

(6) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج5ص230 . المقريزي ، اتعاظ الحنفاء ، ج2ص214 . ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج5ص50 .

(7) ناصر خسرو ، سفر نامه ، ص100 .

خلدون[1] " وخاطبه وزيرهم أبو القاسم الجرجرائي محذراً وهو يراجعه بالتعريض لخلفائه والقدح فيهم حتى أظلم الجو بينه وبينهم إلى أن انقطع الدعاء لهم سنة أربعين وأربعمائة " .

ولعل الأسباب التي أدت إلى قطع المعز الخطبة للفاطميين ، قناعته مع أهل بلاد المغرب بعدم شرعية حكمهم ، وإلى جانب ذلك كان لضعف الفاطميين في عهد المستنصر الذي " في أيامه ثارت الفتن من بني حمدان وأكابر القواد ووجوه العسكرية والأجناد ، وغليت الأسعار وقلت الأقوات واضطربت الأحوال واختلت الأعمال وحُصر في قصره وطمح في خلعه لضعف أمره "[2] .

وعندما خلع المعز طاعة الفاطميين بقطع الخطبة لهم ، دعا على منابر مساجده للخليفة العباسي القائم بأمر الله ، ليس للبحث عن شرعية لحكمه باعتراف خليفة كما تذكر بعض المراجع[3] ، وإنما لأن الذي يجمعه مع الخلافة العباسية هي عقيدة أهل السنة و الجماعة ، فلو كانت المسألة الحصول على اعتراف من خليفة حتى يكسب الشرعية لبقي في طاعته وولائه للفاطميين ، فما الذي ستقدمه له الخلافة العباسية غير الخلع والتقليد بحكم بلاد المغرب ، فليس هناك جديد أو ما يغري المعز بحيث يترك الولاء لهذا ويتجه بالولاء نحو الآخر سوى العقيدة الدينية .

ولم يكتف المعز بقطع الخطبة للفاطميين بل أمر بلعنهم في الخطب سنة محرم ربيع الثاني ه/ رمضان ربيع الثاني شوال محرم م " اللهم والعن الفسقة الكبار ، المارقين الفجار ، أعداء الدين وأنصار الشيطان ، المخالفين لأمرك والناقضين لعهدك ، المتبعين غير سبيلك ، والمبدلين لكتابك ، اللهم والعنهم لعناً وبيلا ، واخزهم خزياً عريضاً طويلاً "[4] .

وبالنسبة للسكة أمر المعز بتغييرها سنة محرم ربيع الثاني ه/ رمضان ربيع الثاني شوال محرم م ، ونقش على الوجه الأول : " ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين " ، وعلى الوجه الثاني : لا إله إلاّ الله محمد رسول الله " .

وحتى لا يظل اسم الفاطميين على السكة السابقة ـ وكانت كثيرة ـ أمر المعز بإعادة سبكها من جديد[5] .

وفي سنة ربيع أول ربيع الثاني ه/ محرم جمادى الأولى شوال محرم م أمر المعز بتغيير لباس القضاة و الفقهاء والمؤذنين إلى السواد شعار العباسيين[6] ، وبذلك أصبحت بلاد أفريقية من سنة شوال ربيع الثاني ه/ شعبان ربيع الثاني شوال محرم م منفصلة عن الدولة الفاطمية التي لم يعد لها أثر .

فالدولة الفاطمية كانت تعاني من ضعف ينخر في جسمها ، ولهذا لما وصلت الأخبار إلى القاهرة بقطع المعز الخطبة ، تعبيراً عن انفصال بلاد المغرب ، وإقامة الخطبة للخلافة العباسية ، لم

(1) العبر ، ج6ص159 .

(2) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص84 .

(3) عبد المنعم ماجد ، الإمام المستنصر بالله ، ص134 .

(4) ابن عذاري ، البيان ، ج1ص277 .

(5) المصدر نفسه ، ج1ص278 .

(6) المصدر نفسه ، ج1ص280 .

تقدم على أي شيء يعيد لها الهيبة في نفوس الناس ، بل ظهرت عاجزة عن حل مشكلة بلاد المغرب ، ولم يكن أمام المستنصر بالله سوى إرسال رسالة إلى المعز يذكره فيها بطاعة آبائه لعله يتراجع عما قام به " هلا اقتفيت آثار آبائك في الطاعة و الولاء "[1] ، فكان جواب المعز : " إن آبائي وأجدادي كانوا ملوك المغرب قبل أن تملكه أسلافك ، ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم ، ولو أخروهم لتقدموا بأسيافهم "[2] . وهذا الجواب لا يخرج عن الكلام الذي قاله المنصور بن يوسف بلكين عندما تولى حكم افريقية ، وهذا يعني أن بني زيري لديهم الرغبة في الانفصال عن الدولة الفاطمية معتمدين على قوتهم ، وزادت هذه الرغبة أكثر في عهد المعز .

وهكذا ظهر عجز الدولة الفاطمية عن تجهيز جيش وإرساله إلى بلاد المغرب لإعادتها إلى نفوذها ، ولكنها لجأت إلى خطة أخرى لم يكن الهدف منها إعادة السيطرة على بلاد المغرب وإنما التخلص من مشكلة تعاني منها الدولة الفاطمية في مصر ظناً منها أنها تصطاد عصفورين بحجر واحد ، تلك المشكلة التي أراد الفاطميون التخلص منها هي قبائل بني هلال وبني سليم التي كانت موجودة في صعيد مصر في القدوة الشرقية من نهر النيل[3] ، وكانت هذه القبائل قبل قدومها إلى مصر تسكن الشام وموالية للقرامطة ، فلما تغلب العزيز على الشام نقلهم إلى مصر واستقروا فيها حتى خرجوا إلى المغرب[4] .

واختيار قبائل بني هلال وبني سليم وإرسالها إلى بلاد المغرب ، ليس لقوتها الفائقة التي تتمتع بها وطاعتها للدولة الفاطمية ، وإنما لأنهم كانوا يشكلون خطراً عليها فقد " عم ضررهم ، وأحرق البلاد والدولة شررهم "[5]، فحاولت التخلص من إحدى المشكلتين في آن واحد وبدون عناء ، فأشار الوزير أبو محمد الحسن بن علي اليازوري (ت [illegible]هـ/[illegible]م) على المستنصر بالله بتقريبهم من الخلافة بتوليتهم بلاد أفريقية وتقليدهم أمرها[6] ، فإن كان لهم الظفر على المعز حكموا باسم الدولة الفاطمية ، وإن كانت الهزيمة من نصيبهم فقد تخلصت من مشكلتهم ، وهي بهذا العمل تحافظ على هيبتها أمام أتباعها وأعدائها وتشعرهم بأنها لا تزال قوية وقادرة على القضاء على من يخرج عن طاعتها .

وكانت هناك خلافات بين القبائل ، وكان على الدولة الفاطمية حل هذه الخلافات قبل إرسالها إلى بلاد المغرب ، فسعت إلى حل ما بينهم من مشاكل الثأر بتحملها ديات القتلى [7] ، وأجزل

(1) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج5ص234 .

(2) المصدر نفسه ، ج5ص234 .

(3) ابن خلدون ، العبر ، ج6ص12 .

(4) المصدر نفسه ، ج6ص12.

(5) المصدر نفسه ، ج6ص13 .

(6) المصدر نفسه ، ج6ص14 .

(7) المقريزي ، اتعاظ الحنفاء ، ج2ص215.

لأمرائهم العطاء ، وأباح لهم المغرب ، وقال لهم الوزير : " قد أعطيتكم المغرب وملك المعز بن بلكين الصنهاجي العبد الأبق فلا تفتقرون "[1] . وكتب الوزير إلى المعز : " أما بعد فقد أنفذنا إليكم خيولاً فحولاً ، وحملنا عليها رجالاً كهولاً ليقضي الله أمراً كان مفعولاً "[2] .

وبعد إعداد القبائل وإرسالها إلى بلاد المغرب ، حرص المستنصر بالله على إرسال الكتب إلى ولاته يشرح لهم فيها ما كان من المعز بن باديس ، وما قامت به الدولة من عمل للتخلص منه وإعادة بلاد المغرب إلى نفوذها[3] .

وعلى الرغم من ذلك الجهد المبذول لجمع شمل القبائل العربية فإن تنافسهم أدى إلى أن يقترعوا فيما بينهم حول اقتسام المغرب فمن يكون في مشرقه ومن يكون في مغربه ، فكان نصيب بني سليم الشرق وبني هلال الغرب ، فخرجوا من مصر سنة صَفَر رَبِيع الآخِر رَبِيع الآخِر هـ/ مَارِس جُمَادَى الأُولَى مَارِس مُحَرَّم ووصلوا سنة رَبِيع الأَوَّل رَبِيع الآخِر هـ/ مُحَرَّم جُمَادَى الأُولَى مَارِس مُحَرَّم ، ولما علم المعز بخروج تلك القبائل إلى بلاده ، استعد لملاقاتها ، واستنفر كل من له علاقة به ، وعند اللقاء انهزم جيش المعز نتيجة لانضمام العرب في جيشه إلى إخوانهم من بني هلال، وحدوث خيانة من زناته وصنهاجة، ففر من أرض المعركة إلى القيروان[4] ، فلحقته القبائل وفرضت حصاراً حولها ، ففر منها ثم أخذ يتنقل في البلاد التي بقيت له مثل المنصورية والمهدية ، واستمر يقاوم حتى توفي سنة رَبِيع الآخِر جُمَادَى الأُولَى رَبِيع الآخِر هـ/ صَفَر جُمَادَى الأُولَى مَارِس مُحَرَّم ، وعلى الرغم من تلك الحروب لم يعد المغرب إلى الولاء للفاطميين كما كان قادتهم يؤملون بل انقسم المغرب إلى مجموعة قوى متناحرة لا صلة لها بالفاطميين نهائياً وأصبحت عبارة عن دويلات مستقلة ، فقد استولى بنو هلال على المناطق الممتدة في الداخل من قابس إلى الغرب ، وظل بنو زيري يحتفظون بالمهدية وما يليها من المناطق الساحلية ، واستقر بنو حماد في بجاية ، واستقل ابن خراسان بتونس ، واستقل موسى بن يحيى بقابس ... الخ[5] . .

وهكذا لم يعد للفاطميين وجود في بلاد المغرب بعد قطع الولاء لهم .

ونخلص من هذا البحث إلى :

- عدم نجاح الدولة الفاطمية في نشر العقيدة الإسماعيلية في بلاد المغرب على الرغم من استخدامها للعديد من الوسائل ، بسبب تمسك أهل المغرب بعقيدة أهل السنة ومقاومتهم للعقيدة الإسماعيلية لعدم تطابقها مع الإسلام عقيدة وشعيرة وشريعة .
- وأن اعتناق بعض أهل المغرب للعقيدة الإسماعيلية لم يكن إلاَّ حباً في تحقيق مصالحهم الشخصية ، ولذلك كانوا يشكلون فئة قليلة نسبة إلى سكان أهل المغرب .

---

(1) ابن خلدون ، العبر ، ج6ص14.

(2) ابن الأثير ، الكامل ، ج8ص296 .

(3) السجلات المستنصرية ، ص43-44 .

(4) ابن عذاري ، البيان ، ج1ص289-290 .

(5) سيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب الكبير ، ج2ص673 .

- وأن قيام العديد من الثورات والتمردات ضد الوجود الفاطمي في بلاد المغرب ، كان يتم القضاء عليها بواسطة بني زيري الذين يحكمون بلاد المغرب باسم الفاطميين .
- وأن بني زيري كانوا يعملون ذلك لتوثيق الحكم لهم لا للفاطميين ، ولهذا ظهر الميل نحو الاستقلال من قِبل بني زيري منذ بداية توليهم للحكم في عهد يوسف بلكين .
- وأن التخلص من الولاء للفاطميين من قبل بني زيري لم يكن نابعاً إلاً من ميل بني زيري إلى عقيدة أهل السنة والجماعة رغم إظهار الولاء والطاعة للفاطميين ، ولم يكن ذلك إلاً حفاظاً على دولتهم حتى جاء الوقت المناسب لإعلان ذلك على يد المعز بن باديس الذي جاهر بعدائه للدعاة الإسماعيليين وأتباعهم وقتلهم ، ثم إلغاء الخطبة والسكة للفاطميين ، وإقامة الخطبة والسكة للعباسيين ، وكان ذلك بدافع ديني عقائدي وليس لتحقيق مصالح شخصية ، وبدعم أهل بلاد المغرب علماء وعامة .
- أن نهاية الوجود الفاطمي الأسمى في بلاد المغرب كان سنة 440هـ/1048م ، رغم محاولتها بواسطة القبائل العربية لإعادة السيطرة الفاطمية على بلاد المغرب ولكنها فشلت وأصبحت مضطربة وموزعة بين دويلات مغربية متعددة .

المصادر والمراجع

- ابن الأثير . أبو الحسن عز الدين علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجرزي (ت 630هـ/1232م) .

1- الكامل في التاريخ ، راجعه وصححه / محمد يوسف الدقاق ، ط1 ، 1407هـ/1987م ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

- الترمذي . أبو عيسى محمد بن عيسى بن سوره بن موسى (ت 279هـ/892م) .

2- جامع الترمذي ، إشراف ومراجعة / صالح عبد العزيز آل الشيخ ، ط1 ، 1420هـ/1999م ، دار السلام للنشر والتوزيع ، الرياض .

- ابن تغري بردي . جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت 874هـ/1469م) .

3- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، مصر .

- حسن إبراهيم حسن (دكتور) .

4- تاريخ الدولة الفاطمية ، ط2 / 1958م ، مكتبة النهضة ، القاهرة .

- ابن خلدون . عبد الرحمن (ت 808هـ/1405م) .

5- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، لبنان ، 1391هـ/1971م .

- ابن خلكان . أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت 681هـ/1281م) .

6- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق /د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت .

ابن أبي دينار . محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني (توفي في القرن 12هـ) .

7- المؤنس في أخبار أفريقية وتونس ، ط 3/1993م ، دار المسيرة ، بيروت ، لبنان .

- الذهبي . محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748هـ/1348م) .

8- تاريخ الإسلام ، تحقيق / د. عمر عبد السلام تدمري ، ط2 ، 1414هـ/1994م ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

9- سير أعلام النبلاء ، تحقيق / شعيب الأرنؤط ، محمد نعيم العرقسوسي ، ط11 ، 1417هـ/1996م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

- الزركلي ، خير الدين (ت 1976م) .

10- الأعلام ، ط3 ، 1389هـ/1969م (د . دار نشر) ، بيروت .

- سيد عبد العزيز سالم (دكتور) .

11- تاريخ المغرب الكبير ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1981م .
- الصفدي . صلاح الدين خليل بن ايبك (ت 764هـ/1362م) .
12- الوافي بالوفيات . تحقيق واعتناء / أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، ط1 ، 1420هـ/2000م ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ـ لبنان .
- عبد المنعم ماجد (دكتور) .
13- الإمام المستنصر بالله ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1961م .
- ابن عذاري . أبو عبد الله محمد المراكشي (توفي أواخر القرن السابع الهجري) .
14- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق ومراجعة / ج . س . كولان و أ . ليفي بروفنسال ، ط3 ، 1983 ، دار الثقافة ، بيروت ـ لبنان .
- ابن العماد الحنبلي . أبو الفرح عبد الحي (ت 1089هـ/1678م) .
15- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، المكتب التجاري ، بيروت .
- عويس . عبد الحليم (دكتور) .
16- دولة بني حماد ، ط2 ، 1411هـ/1991م ، دار الصحوة للنشر و التوزيع ، القاهرة ، دار الوفاء ، المنصورة .
- أبو الفداء . إسماعيل بن علي (ت 732هـ/1331م) .
17- المختصر في أخبار البشر ، مكتبة المثنى ، القاهرة .
- ابن القلانسي . أبو يعلي حمزة بن أسد (ت 555هـ/1160م) .
18- ذيل تاريخ دمشق ، مكتبة المثنى ، القاهرة .
- ابن كثير . إسماعيل بن عمر (ت 774هـ/1372م) .
19- البداية والنهاية ، تحقيق / أحمد عبد الوهاب فتيح ، دار الحديث ، القاهرة ، 1414هـ/1994 م .
- المقرى التلمساني . أحمد بن محمد (ت 1041هـ/1633م) .
20- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق / يوسف الشيخ محمد البقاعي ، ط1 ، 1406هـ/1986م ، دار الفكر ، بيروت ـ لبنان .
- المقريزي . أحمد بن علي (ت 845هـ/1441م) .
21- اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، تحقيق / د. محمد حلمي محمد أحمد ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، 1416هـ/1996م .
- ابن منظور . محمد بن المكرم (ت 711هـ/1311م) .
22- لسان العرب ، ط3 ، 1413هـ/1993م ، دار إحياء التراث العربي ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت . لبنان .
- ابن الوردي . عمر بن مظفر (ت 749هـ/1347م) .
23- تاريخ ابن الوردي ، ط1 ، 1417هـ/1996م ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- ناصر خسرو علوي (ت 471هـ/1088م) .
24- سفر نامه ، ترجمة / د. يحيى الخشاب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1943م .
- ياقوت الحموي . ياقوت بن عبد الله (ت 626هـ/1228م) .
25- معجم البلدان ، تحقيق / فريد عبد العزيز الجندي ، ط1 ، 1410هـ/1990م ، دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان .